الطبائع والامزجة[1]

لعزيز مصطفى الشهابي
مدير املاك الدولة بدمشق وعضو المجمع العلمي العربي

ما الانسان في هذه الحياة ؟ جيش من الخلايا لا تعد جنوده ولا تحصى ؟ وفي كل خلية جبلة اولى (بروتوبلاسم) دائمة الحركة لا تقف ولا تستريح ولا تكل ولا تمل . وما الحياة نفسها ؟ هدم وبناء وأخذ وعطاء وصعود وهبوط في صلب هذه الخلايا ، والانسان بهذا الجيش العجب كعمود ماء فوق حوض تحاله ثابتاً وتقاطه في تجدد مستمر . ذلك ان الجسم الانساني لا يكف طيلة الحياة عن امتصاص العناصر الغذائية وتمثيلها وصنع مواد تندمج في خلاياه ثم هو يفرز ما لا فائدة منه ويطرحه خارجاً . ولا تقف هذه الحركة المستديمة الا بوقوف الحياة وانطفاء شعلتها

واذا فحصنا الخلايا بمجهر العالم الذي يتحرى الحقيقة ويستقصيها الفيناها لا تتجدد في كل فرد على طريقة واحدة ولا بمقادير واحدة . وهذا الاختلاف هو ما يدعو الى حصول الطبائع المختلفة في بني الانسان على رأي كثير من العلماء . وليس بامكان المرء تغيير طبيعته لانه ليس له يد على خلايا جسمه ، انى شاء ، تمثيلاً وافرازاً

والناس طبيعتان اساسيتان وهما طبيعة الانسان الحساس وطبيعة الانسان الفعال . ففي حس الامور وادراكها يكون التمثيل في الخلايا زائداً على الافراز ، اما في الحركة كاستعمال الارادة او الحركة العضلية فالافراز يسود . ومتى رجحت كفة الطبيعة الاولى شالت كفة الثانية في الاعم ، فالحساس قلما يكون مقداماً والعكس بالعكس . والآلة التي تضبط التمثيل والافراز في الجسم كما تضبط الحس والعمل هو الدماغ فهو كناظم الساعة الضابط لحركتها لكنه هو نفسه غير متزن في كل الاشخاص فيكون قوياً لدى بعضهم وضعيفاً لدى بعض وسريع الحركة في ناس وبطيئها في آخرين . وهنا يتجه الى جهة وهناك الى جهة معاكسة للاولى تبعاً لشكل حركة خلاياه في التمثيل والافراز . وهذا ما يجعل للاعصاب سيرة خاصة فتكون حساسة او فعالة

(١) بحث نلقي لجنته على اثر تلاوة بعض كتب اعها كتاب بهذا العنوان للفيلسوف الفرنسي الفريد فويه . والغاية منه بيان خصائص الرجل وخصائص المرأة بياناً علمياً وتصنيفاً والعودة الى تعليم المرأة الشرقية ما يناسبها . والطبائع ترجمة Tempéraments اما الامزجة فترجمة Caractères

وكان الاقدمون يقولون بأربع طبائع يسمونها اخلاطاً وهي الدم والبلغم والصفراء والسوداء وينعتونها بقولهم طبيعة حارة وباردة ويابسة ورطبة . وهي كنهها تقسيمات ونعوت لا يعوَّل عليها اليوم

ويكون الحس سريعاً أو بطيئاً ، حاداً أو ضعيفاً ولذلك يكون الحساس على طبيعتين : حسَّاس سريع الحس ولكن ضعيفهُ وحساس بطيء الحس ولكن عظيمهُ

﴿ طبيعة الحساس السريع الحس ﴾ . يسمونه ايضاً الحساس الدموي . وتكون كريات الدم لديه عديدة ارجوانية اللون على عكسها في الصفراوي الفعال حيث هي قليلة قاتمة . ويكون لون بشرة الدموي ورديًّا زاهياً وشعره اشقر وعيناه الى زرقة (كل ذلك في المتوسط من الحالات) وعنقه قصيرة عريضة ورأسه مستديراً أو مربعاً واتفه عريضاً . وتلوح على جسمهِ علامات الجسم الملآن غذاء ، اي الذي يزيد فيهِ المدخر على المستهلك . ويكون صاحب هذه الطبيعة سريع الانفعال لكن انفعاله سطحي يزول بسرعة . وهو كثير الكلام كثير الاشارات قليل العمل سريع النسيان لا جلَد له على العمل المتصل المستمر ولا على اجهاد العقل . ولا يلبث الحادث الجديد الذي يحسه ان يطرد الذي سبقه . والخلاصة يوجد في كل دموي خالص شيء من خصال الطفولة والفتوة . ألا ترى ان الطفل الذي يزيد في جسمهِ الادغار على الاستهلاك ورديّ الجلد ابيض الجلد سريع الحس لكن الحس فيهِ سطحي لا يدوم كثيراً فالطفل هو المثال العادي لهذه الطبيعة . ويكون صاحبه ابن يومه ينسى الماضي ولا يفكر الاَّ في حاضره كالصبي والشاب . وليس للآلام العميقة سلطان عليهِ . وهو متقائل واقرب إلى الخير منه الى الشر . لكنه لا يتعدى بذلك حد الكلام والعاطفة ولا يتجاوزهما الى العمل . ويمكن لهذه الطبيعة ان تعتدل بتقدم العقل وتأثير الارادة

﴿ طبيعة الحساس العميق الحس ﴾ هي طبيعة العصبي الذي اذا صدمته المؤثرات عملت عملها فيهِ فلا يعود الى سابق حاله الاَّ بعد لأي دمهُ اقل من دم صاحب الطبيعة السالفة الذكر وجهازه العصبي اقوى وعضله اضعف . ويكون شاحب اللون لفقر دمه حاد النظر كثير الحركة قلقاً في نومهِ طويل العنق دقيق الانف في الغالب خفيف الجسم رشيق القوام غير بدين . وكثيراً ما تعرض جبهته وتستدق ذقنه فيكون وجهه على شكل الرقم ٧ . وهو شديد التأثر بكل ما يفرح ويغم وربما أدى بهِ ذلك الى السوداء لان شعوره يكون عميقاً داخليًّا متأصلاً

ويكون العصبي مرحاً في طبيعتهِ أو حزيناً لكن عوامل الحزن تتغلب عليهِ في الغالب فتراه حذراً قلقاً ليس فيهِ آمال الدموي المتجددة في كل حين فهو اذن متشائم . غير ان صاحب هذه الطبيعة اذا اعتدل وناله حظ من الذكاء كان آية في العبقرية ولا سيما اذا كان وسطاً بين العصبي والدموي . ولقد زعم ارسطو ان كل العباقرة في الفلسفة والسياسة والشعر والفنون

هم من اصحاب السوداء . ولا يشير بذلك الى الذين يرتقبهم الهم والحزن من ال ذوي الحس العميق والانفعال المتأصل الذين لهم ذكاء وقّاد يدركون به نواحي الحياة الجدية حتى القاتمة منها

﴿ طبيعة الفعّال ﴾ الفعّال ايضاً على تسمية جالينوس هو الذي عظيم وفعّال بطيء العمل قليله . ذلك ان الفعال يحتاج في حياته الى صرف قوة كبيرة عصبية وعضلية . ولما كان تفسير ذلك الصرف انحلال الجبلة الاولى في خلايا جسمه الى عناصر ابسط كان مزاج الفعال هو الذي يزيد فيه الاستهلاك على الادخار اي الافراز على التمثيل . ويكون الاستهلاك في الفعّال اما قويًّا وسريعاً أو على العكس معتدلاً وبطيئاً وهذا يكون للفعّال طبيعتان كما ذكرنا ويمكن في العمل قرن السرعة الى القوة اما في الحساسية فكثيراً ما تفترقان

﴿ الفعّال السريع العمل العظيمهُ ﴾ الفعّال الذي يعمل بسرعة وقوة كان يسمى صفراويًّا لدى الاقدمين . والحقيقة انه ليس للصفراء تأثير في طبيعته . ويكون الدم فيه اقتر منه في الدموي بالكريات الحمر . يقولون ان الصفراوي ذو دم حار وهذا صحيح ولا سيما في الدماغ . وكان كارليل يقول حرارتي بدلاً من طبيعتي . ويكون وجهه شاحباً لخلو دمه من الاوكسجين بسبب كثرة الاستهلاك . وهذا السبب هو الذي يجعل لون شعره وعينيه اسود لامعاً في الجملة ويكون قوي الجسم نحيفه سريع الهضم والتنفس شديد الحاجة الى النوم العميق حاد العينين قوي العضل لا يسمن الاّ نادراً . واذا تأثر بحادث اصفرّ وجهه في الغالب بدلاً من ان يحمرّ وربما اثر ذلك في كبده وهذا ما استرعى نظر الاقدمين فسموه صفراويًّا . وتزيد الشمس في خصائص هذه الطبيعة فيكثر اصحابها في البلاد المعتدلة والحارة . وهي فاشية في القبائل البدوية

وشدة نشاط صاحب هذه الطبيعة تجعله جباراً اذا عاكسهُ احد وتجعله سريع الغضب ايضاً . وقد شبهه احدهم بجسم مكهرب من يمسه يتقدح شرارة كهربائية . واذا لم يجد في عضلاته منفذاً للعمل ولصرف القوة اثّر ذلك في جسمه تأثيراً داخليًّا ولاسيما في دماغه فتراه اذا احبّ عشق واذا بغض كتم بغضاءه سنين حتى ينتقم . وهو شجاع مقدام في الغالب . واذا حكم استبدّ في اكثر الاحيان دون ان يعبأ باستمالة قلوب الناس او عقولهم اليه كثير من رؤساء القبائل المعروفين او كنابليون مثلاً فهو في مقابلة الناس حيوان يخاطب حيواناً دونه . واعتقاده ببلوغ مراده يجعله قوي الامل كبير الثقة بنفسه ولهذا يغلب فيه التفاؤل

﴿ الفعّال البطيء العمل القليلهُ ﴾ هو صاحب الدم البارد او صاحب البلغم الذي له ارادة تحفزه على العمل ولكن بعد إعمال الفكر وموازنة الامور . ويعرف بعنق قصيرة وانف عريض ولون شاحب غالباً وشعر اشقر او اسمر باهت غير كثيف وعينين شهلاوين او خضراوين غير متقدتين وجسم ممتلىء ودماغ مفكر . هو يملك نفسه فلا تثيره الحادثات كالذي سبق ذكره . وبحث عنهُ « كانت » فقال انهُ يحمى ببطء لكن حرارته تدوم طويلاً وربما سموهُ عاقلاً لان

برودة الدم اذا ما قرنت بالنشاط على العمل تغلبت على كثير من الصعاب . اما اذا فقد صاحب هذه الطبيعة نشاطه اثّر ذلك في حساسيته وفي حيويته فيضعف دوران الدم فيه ويزداد دوران الصفراء فترخو نسجه وتبطؤ الحركة في اعضائه وينضب الدم في دماغه فيتبلد ويبتعد عن الحيوان ويقرب من النبات

﴿ الخلاصة في الطبائع ﴾ تلخص طبائع الناس بقولك انهُ يوجد فيهم : اولاً الدموي (الحسّاس السريع الحس النائش) وهو سريع الانفعال لكن انفعاله لا يدوم كثيراً . ثانياً العصبي (الحساس العميق الحس) وهو بطيء الانفعال لكن انفعاله يكون شديداً ومتأصلاً . ثالثاً الصفراوي (الفعّال الحاد العمل) وهو الذي يكون عمله سريعاً قويًّا . رابعاً البلغمي (الفعّال البارد) وهو الذي يكون عمله راسخاً متزناً . ويزيد الادخار على الاستهلاك في جسم اصحاب الطبيعتين الاوليين . والامر معكوس في اصحاب الطبيعتين الثالثة والرابعة

واذا صدمت النوائب الدمويَّ صدمة عنيفة اثّرت في دماغه وفي جهازي الدم والتنفس . اما العصبي ففي جهاز العصب والدماغ واما الصفراوي ففي الكبد . والبلغمي لا يتأثر بها عضو من اعضائه بل تبدو عليهِ علائم الحزن والكآبة فحسب

***

وذكر (كانت) ان كل انسان له طبيعة واحدة من الطبائع الاربع المذكورة ليس غير . وانهُ لا يوجد طبائع مركبة . اما القريد فويه فيرى عكس ذلك ويقول انهُ لا يوجد صاحب مزاج بسيط البتة لانهُ لا يمكن تصور وجود حس بلا ارادة او وجود ارادة بلا حس ولا عقل كما ان الجسم لا يمكن ان يدخر بدون ان يستهلك . ولا يوجد في الكون شدة مطلقة ولا سرعة مطلقة في الادخار والاستهلاك بل كل شيء نسبي . ولهذا نرى بين الناس الدموي العصبي والعصبي الصفراوي ، والعصبي اللنفاوي (البلغمي) الخ اي اناساً يجمعون طبيعتين . وربَّ رجل يجمع ثلاث طبائع كأن يكون دمويًّا وعصبيًّا ولنفاويًّا وهو ما يكثر في المانيا والكترا وربما حصل الاختلاط في خلق الوجه وسائر الجسم كالجمع بين شعر اسود وعينين زرقاوين وكأن يكون لك جسم وردي وقامة هيفاء . وكل ذلك نتيجة وراثات مختلفة اوجبت اختلاط الطبائع

ولا يستطيع الانسان تبديل طبيعته لكن هذه تتبدل بتقدم السن . فالولد يحتاج خصوصاً الى الاحتفاظ بنفسه والى النمو ولهذا تراه شديد الحس والانفعال يطلب النفع العاجل ويهرأ الضرر القريب ويسير عن بصر للاشياء لا عن بصيرة . اما البالغ فعلى العكس لان قواه العقلية تزداد مع الزمن وكذا محاكمته للامور فيضبط بها عوامل الغريزة الحيوانية . واما الشيخ فكل شيء فيهِ يبطؤ اي ان طبيعته تعتدل مهما كان متطرفاً ويكثر البلغم فيهِ حتى يبلغ به حد

الكمل . وتتردد ارادتهُ كناظم الساعة (الرقاص) وتبدو عليهِ علائم الاضمحلال والفناء

﴿ فائدة علم الطبائع في الحياة ﴾ لا شك ان لعلم الطبائع فائدة كبيرة من حيث الاخلاق وتربية الاولاد. فكما ان الطبيب يحتاج في وصف الدواء الى معرفة خلق المريض كذلك المؤدب يحتاج في تأديب الصبيان الى معرفة طبائعهم الخلُقية المختلفة . ومن البساطة بمكان الظنُّ أن الجميع يمكن سوقهم بعصا واحدة. وربما نفعت الشدة في احدهم ولم ينفع في آخر غير التسامح . وربَّ تعهد يفعل فيهِ اللين والتحبب وآخر لا يؤثر فيهِ غير الخوف . ومن الثابت ان المربين يجهلون كثيراً نسيولوجية الطباع جهلهم للقواعد الصحية التي يجب رعايتها تجاه الاعمال العقلية

***

ولطبيعة تأثير في سعادة الانسان وفي اخلاقه طيلة الحياة . ويجب ان نفتش في كثير من الاحايين في نفسنا عن سرّ حزننا او طربنا فهنالك نجد ساعات من البؤس وساعات من السرور وهنالك نرى الاشياء بألوان مختلفة بمقتضى طبائعنا . ولقد بالغ احد العلماء فقال ان ينبوع الخير والشر هو فينا في الغالب . ذلك ان كل عضو من اعضائنا له عمله في سير شعلة الحياة فيها فالجوع والعطش وسوء الهضم وخفقان القلب والتعب والاجهاد والقلق والحزن الخ كل ذلك له تأثير اي تأثير في تكوين سعادة الانسان وكله له اشد ارتباط بالطباع . ومتى كان الانسان مرحاً في طبيعته فسيان لديه واتاه الحظ ام لازمهُ النحس . اما المتبرم بالحياة فهو يظل مكمداً مهما خدمتهُ الايام. وبوجهٍ خاص ان بعض اسباب السعادة هي في طبيعتنا . ولا يجب ان يستنتج من ذلك ان البيئة والحوادث وبخاصة العقل والارادة ليس لها تأثير في سعادة الانسان وهي التي يتألف منها مزاجه او طابعهُ الذي يتطبع بهِ كما ذكرناه بعدُ

اما تأثير الطبائع في الاخلاق فهو ايضاً امر لا ينكر ولا يعبأ بقول احدى الاديبات « لا اصدق ان الفضيلة مرتبطة ببضم الاغدية » . فلكم قادت الطبيعة المرء الى اعمال شتى من الخير والشر والامثلة على ذلك كثيرة

***

﴿ الامزجة ﴾ يقول الفرد فويه ان طبيعة الانسان تخلق معهُ لكن المزاج يكتسب بالتطبع والمران . والمؤثر في المزاج العقل الانساني . وربَّ رجل تسود السوداء في طبيعته فيطردها بالعقل والارادة فيكون مرحاً في مزاجهِ . واذا كانت الطبيعة مرتبطة بتركيب الجهاز العصبي وسيره خاصة فالمزاج مرتبط بتركيب الدماغ وسيره في الاخص وهو عضو العقل

والناس على ثلاثة امزجة : الحساس والمفكر والمقدام (او النشاط وهو القويّ الارادة). وتتبدل امزجتنا بتبدل شدة هذه القوى الثلاث . والمزاج الامثل هو الذي يتوازن فيهِ الحس والفكر والارادة

﴿ الحسّاس ﴾ اذا كان الحساس قليل الذكاء قليل الارادة كان كالطفل سريع الانفعال ضعيف الذاكرة . اما اذا كان قليل الذكاء قوي الارادة كان خطراً لانهُ يجمع قوتي الحس والارادة بلا تفكير . وكثير من المجرمين لهم هذا المزاج . واما اذا كان الحساس ذكيًّا كان من الرجال المقتدرين الامزجة حتى في حالة خلوهم من ارادة قوية

﴿ المفكر ﴾ هو الذي ينمو عقلهُ على كرّ الأيام فيصير التفكير طابعاً له . وهو مزاج كثير من العلماء والفلاسفة ، واذا كان المفكر حساساً اشبه بمزاجه بعض الشعراء كشكتور هوجو وأمثاله . ولا شك ان نمو العقل يمكن فرط الحس على طول الزمن . وربما اضرّ التفكير بالارادة ايضاً فينشأ عن ذلك اشخاص يتمثلون العالم في دماغهم فيصورنهُ صوراً لا تحصى ويعيشون غارقين في تأملاتهم غير المتناهية . وهم ينفقون كثيراً من القوى داخليًّا فيقلّ ما يجب ان ينفقوه في الخارج . وقد يعدم التفكيرُ الارادة احياناً . لأن المفكر بعيد النظر للامور اما المقدام فلا يرى غير ناحية واحدة منها ولذا ترى المفكر كثير الاحجام عن العمل بعد ان يتمثل في ذهنه كل دواعي الاقدام وكل دواعي الاحجام . والشك طارد للفعالية كما لا يخفى . اما اليقين فباعث على الاقدام . واذا كان اليقين منبعثاً عن عقيدة شعورية كعقيدة الدين مثلاً حمل صاحبه على الموت احياناً . ولا يظنّ ان شدة التفكير تدعو الى التردد في كل الامور فالمفكر لا يعبأ بالصغائر التي لسر لها العامة والدهماء لكنهُ كثير الاهتمام بجلائل الاعمال . واذا كان القليل من العلم داعياً الى التردد فالكثير منهُ يدعو الى العمل . ولكل معضلة مفتاح فاذا لم تعثر عليه انت فاحجمت لقيهُ من هو اشد ذكاء وتفكيراً منك فأقدم

﴿ المقدام ﴾ الارادة اذا لم يصحبها العقل اضرّت بصاحبها . والدماغ البسيط الذي لم تعتله التجارب او العلوم هو نموذج للارادة الحمقاء التي تجعل صاحبها يقدم على اعمال غير معقولة ويصر على اخطائه . وهو دماغ الجهلاء الذين يصعب تبديل معتقداتهم لانهم جهلاء لا يمكنهم استخراج القواعد المطلقة من الامور التي يحسونها . لكنه اذا كان صاحب الارادة مفكراً فالثابرة على الاقدام لا يسمى لديه عناداً بل ثباتاً . ويتضح من ذلك ان العقل والتفكير هما عاملان مهمان في سير الارادة

والمقدام على ثلاثة اشكال اولاً المقدام القليل الحس والتفكير وهو العنيد في حمقه وضلاله . ثانياً المقدام الكبير الحس القليل التفكير وهو الطموح المتهوّر . ثالثاً المقدام القليل الحس الواسع التفكر وهو الذي يحكم الامور ببرودة ثم يمضي فلا يثنيه شيء

[تتمة البحث تتناول الطبائع والامزجة لدى الرجل والمرأة]